بسم الله الرحمن الرحيم

مِن أفضلِ الساعات هيَ تلكَ الساعة التي يَقضيها المسلم مع كتابِ ربِّهِ تعالى، فيَتلو ويَتدبَّرُ، ويَتعلَّمُ الأحكامَ ويأخذُ العِظةَ والعِبرَة، وقد كانَ صلى الله عليه وسلم كثيرَ المُدارسَةِ للقرآنِ، فكانَ يتدارسُهُ مع نفسِهِ، وكانَ يَتدارسُهُ مع جِبريلَ عليهِ السلامُ، وكانَ يَتدارسُهُ مع أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُم، ولعلنا نقف مع تفسير سُورةٍ مكيَّةٍ مِن سُورِ القرآنِ الكريم، هيَ سُورةُ [الضُّحى]، هذه السورة التي نزَلَتْ بعدَ انقطاعِ الوحْيِ مُدَّةً، فزَعَم المُشركونَ أنَّه صلى الله عليه وسلم قد تُرِكَ وأُبْغِضَ، وأنَّ ما كان يأتِيهِ من الوحْيِ شيطانٌ!!

فصحَّ عن جُنْدُبٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ:((أَبْطَأَ جِبْرِيلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: قَدْ وُدِّعَ مُحَمَّدٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ سورة الضُّحَى)) وصحَّ أيضًا: اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ:{وَالضُّحَى} لتُواسيَ قلبه صلى الله عليه وسلم حين انقطع عنه الوحيُ، فشعر بالوحشة، وظن أن الله قد قلاه، فجاءت هذه السورة تطمئنه، وتخبره أن الله لم يهجُره.

سورة تضمنت (قسَمَانِ مِن الله تعالى)و (جوابانِ نافيانِ) و(جوابانِ مُثْبَتَانِ) و(ثلاثُ نِعَمٍ على رسولِه صلى الله عليه وسلم) و(ثلاثُ وصايا لَه، ولأُمَّتِهِ)....فقالَ تعالى:

وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى: (قسَمَانِ مِن الله تعالى) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى: (جوابانِ نافيانِ) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى: (جوابانِ مُثْبَتَانِ) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى: (ثلاثُ نِعَمٍ على الرسولِ صلى الله عليه وسلم) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ: (ثلاثُ وصايا لَه، ولأُمَّتِهِ).

وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى: أقسَمَ سُبحانَهُ بالنَّهارِ إذا انتَشرَ ضِياؤُهُ، وخاصَّة في وقتِ الضُّحى، وبالليلِ إذا سَكَنَ واشتدت ظُلمَتُهُ.

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ: لفتة في اختيار لفظة (ما ودعك)، بيانًا لمكانته صلى الله عليه وسلم عند رب العزة، فلم يقُل له: ما تركك ربك، بل:{مَا وَدَّعَكَ}، والوداع يكون بين الأحباب ومن تعِزُّ مفارقته...وَمَا قَلَى: مَا أبغَضَكَ

ربُّكَ مُنذُ أحبَّكَ، وأكذَبَ المُشركِينَ فيما افتَرَوا.

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى: إخبارٌ عن حالِه صلى الله عليه وسلم المُستَقبَلِيَّة...كلُّ حالةٍ مُتأخِّرَةٍ مِن أحوالِكَ في الدُّنيا، فإنَّ لَهَا الفضلَ والعلوَّ على الحالةِ السابقةِ، وحالُكَ في الآخِرَةِ خيرٌ لكَ وأعظَمُ وأعلَى وأجَل مِن حالِكَ في الدُّنيا...

لِهذا كانَ صلى الله عليه وسلم أزْهدَ الناسِ في الدُّنيا، ولَمَّا خُيِّرَ صلى الله عليه وسلم في آخِرِ عُمُرِهِ بينَ الخُلدِ في الدُّنيا، وبينَ الصَّيرُورَةِ إلى الله تعالى اختار ما عندَ الله على هذهِ الدُّنيا.

والمتتبع لحال النبي صلى الله عليه وسلم في الدُنيا يرى كيف مكّنَ اللهُ لَهُ دِينَهُ، ونصرهُ على أعدائِهِ.

وأما في الآخرة فصَحَّ أنَّه صلى الله عليه وسلم قالَ عن نفسِهِ:((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)).

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى: في الدَّارِ الآخِرَةِ سيُعْطِيهِ الله حتَّى يُرْضِيهِ فِي أُمَّتِهِ، وفِيمَا أَعَدَّهُ لَهُ مِن الكرَامَةِ، ومِن جُملَتِهِ نَهْرُ الكوثَرِ الّذي حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللّؤْلؤِ الْمُجَوَّفِ، وَطِينُهُ مِسْكُ أَذْفَر.

وأمَّا النِّعَمُ الثلاثُ، فقد جاءتْ في قولِ الله تعالى:

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى: وجدَكَ لا أُمَّ لكَ، ولا أب، فآواهُ اللهُ بأنْ يَسَّرَ مَن يَكفُلُهُ، فكفَلَهُ جدُّهُ عبدُ الْمُطَّلِبِ، ثمَّ لَمَّا ماتَ جدُّهُ كفلَهُ عمُّهُ أبو طالبٍ، حتى أيَّدَهُ اللهُ بنَصرِهِ وبالمؤمنين.

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى: وجدَكَ لا تَدرِي ما القرآنُ ولا الإيمانُ ولا أحكامُ الشريعةِ، فعلَّمكَ ما لم تَكنْ تعلَمُ، وأكرَمَكَ بأنْ جعلَكَ نبيًّا ورسولًا للناسِ أجمعينَ، ووفَّقكَ لأحسنِ الأعمالِ والأخلاقِ، ففُقْتَ الخلقَ دِينًا وعملًا وخُلقًا ومنزلة، قالَ سُبحانَهُ مُمتنًّا عليه صلى الله عليه وسلم: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ}.

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى: وجدَكَ فقيرًا فأغنَاكَ بِمَا فتحَ اللهُ عليكَ مِن البُلدانِ التي جُبِيَتْ لكَ أموالُها وخرَاجُها، وأغنَى قلبَكَ وقنَّعَهُ بما كَتبَ لكَ مِن رِزق.

وقد صحَّ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ: ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ)) والكفَافُ مِن الرِّزقِ نوعٌ مِن أنواعِ الغِنَى، وهوَ: ما يَسُدُّ الحاجةَ، فلا يَلحقُ صاحبَهُ الجَهدُ والضَّنكُ، ولا يُعرِّضُهُ لِلذُّلِ والخِزيِ بمسألةِ الناسِ أو سَرقَتِهم.

والكفافُ أيضًا هي دَعوةُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لآلِ بيتِهِ، فقال صلى الله عليه وسلم: ((اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا)) وصحَّ أنَّهُ صلى الله عليه وسلم قالَ: ((لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ))...وأما الوصايا الثلاثَ فجاءتْ في قولِه سُبحانَهُ:

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ: أحسِنْ مُعاملةَ اليَتيمِ، ولا تُسِيء إليهِ، ولا يَضِقْ صدْرُكَ عليهِ، ولا تَنْهَرْهُ، بل أكرِمْهُ، وأعطِهِ ما تيسَّرَ.

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ: لا يَصدُرْ مِنكَ إلى السائلِ كلامٌ يَقتَضِي رَدَّهُ بنَهْرٍ وغِلظَةٍ وشَراسةِ خُلُقٍ ووجْهٍ غاضِب، بلْ قابِلْهُ بالرِّفق والقولِ والفِعلِ الجميلِ، فإنْ كانَ يُريدُ المالَ والطعامَ والشَّرابَ فأعطِهِ ما تيَسَّرَ عِندَكَ، وإنْ كانَ يُريدُ السؤالَ عن العلمِ المُثمِرِ عملًا صالحًا وإيمانًا فأجِبْهُ بما تعلَم.

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ: أثْنِ على اللهِ دَومًا بما أنعمَ عليكَ مِن النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وخصِّصْهَا بالذِّكر إنْ كانَ هُناكَ مصلَحَةٌ، وإلَّا فحَدِّثْ بنعَمِ اللهِ على الإطلاقِ، فإنَّ التَّحدُّثَ بنعمةِ اللهِ داعٍ كبيرٍ لِشُكرِها، ومُوجِبٍ لِتحبيبِ القلوبِ إلى مَن أنعَمَ بها وهوَ اللهُ تعالى،، فإنَّ القلوبَ مَجبُولَةٌ على مَحبَّةِ المُحسِن، وصحَّ عن أبي نَضْرَةَ رحمه الله أنَّه قالَ: (كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَرَوْنَ أَنَّ مِنْ شُكْرِ النِّعَمِ أَنْ يُحَدَّثَ بِهَا).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين